لا تفض ينابيعك إلى الخارج

في داخل قلب الإنسان تُستعلن ثلاث حقائق جوهرية وهي حقيقة العالم، وحقيقة الإنسان نفسه، وحقيقة الله. لكن حكمة الله أرادت أن تكون تلك الحقائق أسراراً مخفية في حقل القلب *"أيضاً يشبه ملكوت السموات كنزاً مُخفىً في حقل وجده إنسان فأخفاه"* (مت١٣:٤٤). بالتالي تتلخص الغاية من كل جهاد الإنسان في الوصول إلى المعرفة الروحية أي إلى معرفة سر العالم الباطل، وسر الإنسان المخلوق على صورة الله ومثاله، وسر الله المحبة. ولن يتم ذلك إلا من خلال الدخول إلى مخدع القلب والتواصل مع الإنسان الداخلي *"فأدخل إلى مخدعك وأغلق بابك"* (مت٦:٦). ولعل سليمان الحكيم أدرك بحكمته أن خلاص الإنسان لا يصنع إلا داخل القلب فقال: *"لا تفض ينابيعك إلى الخارج سواقي مياه في الشوارع"* (أم٥:١٦). والسيدة العذراء إذ اختبرت حضور الله داخل أحشائها جعلت من قلبها مقراً دائماً لفكرها *"وأما مريم فكانت تحفظ جميع هذا الكلام متفكرة به في قلبها"* (لو٢:١٩). والابن الضال لم يعثر على طريق خلاصه إلا عندما استرجع قلبه المفقود *"ورجع إلى نفسه"* (لو١٥:١٧). والقديس إسحق السرياني الذي وصف درجات المعرفة الروحية قال: *(نعمة الله تريد أن يكون الإنسان داخل الباب)*.

وإذ أدرك الآباء القديسون الرهبان والنساك والمتوحدون أن أكثر ما يرعب عدو الخير هو تحول توجه الإنسان من الخارج إلى الداخل، وانجماع عقله المشتت خارج إنسان قلبه أرشدهم الروح القدس إلى طريق الصلاة القلبية كسلاح لمقاومة طياشة الفكر وكطريق مضمون للدخول إلى حجال الملك.

أما إنسان اليوم المعاصر فعمره منقضي في الملاهي بسبب انخداعه بمغريات عدو الخير الذي يتفنن في تحديثها كل لحظة حتى يضمن بقاء الإنسان متبعثراً خارج نفسه *"في الشوارع"* (أم٥:١٦). ومن هذه الحرب لم يفلت لاطفل ولا شاب ولا

شيخ ولا رجل ولا إمرأة حتى صاروا جميعاً يتفننون ويتسابقون في اختراع أبرع الوسائل التي تساعدهم على الفرار من الاختلاء إلى النفس بحجة الملل والضجر.

ليعطنا الله *"بحسب غنى مجده أن نتأيد بالقوة بروحه في الإنسان الباطن"* (أف٣:١٦) فننهض للصلاة القلبية والسهر العقلي كل حين وفي كل مكان حتى نجد اللؤلؤة كثيرة الثمن المخفية في حقل قلوبنا الداخلي. آمين